بيت القهوة

لم أفتش في كتاب : تراجم الأعيان للبوريني عمّا أشار اليه الدكتور صلاح الدين المنجّد في مقدّمته الوافية ، فلم يغادر شيئاً ممّا يتّصل بالبوريني وبتراجمه دون إمضاء القول في ذكره وتوضيحه ، انّما الذي قيّد اهتمامي بتراجم الأعيان ما اهتديت إليه من ألفاظ وتراكيب يرجع تأريخها الى القرن الحادي عشر ، وكما أنّ علماء الآثار تظهر عليهم علامات الانشراح في كشفهم عن آثار مخبوءةٍ تدلّهم على أشياء كثيرة من التأريخ والحضارة وغيرها فكذلك ظهرت عليّ علامات الانشراح في مروري على ألفاظ وتراكيب تدلّني على نمطٍ من الاجتماع واللباس والعمران وأشباه هذه الأمور ، ولا بأس بعد ذلك بالتفصيل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أغمضُ شيء في تأريخنا إنما هو نمط الحياة على اختلاف وجوهها ، كيف كانوا يعيشون ، وأين كانوا يجتمعون ، وماذا كانوا يلبسون وما شابه هذه النواحي كلّها ممّا يصوّر لنا الحياة الاجتماعية بعض التصوير .

أين كانوا يجتمعون في أوقات فراغهم أو في التماس راحتهم ، إنّا نجد في ترجمة الشيخ أحمد العناياتي النابلسي أشياء كثيرة من خلقه ومزاجه وانقباضه عن مخالطة الناس وعاداته ، من هذه العادات ما قاله البوريني : « وكانت عادته في كل يوم على الصباح أن يجيب في الغالب داعي الفلاح ثم يسير الى بيت من بيوت القهوة يكون فيه الماء الجاري مع المليح الساقي والجلوة ، ويشرب من قهوة البنّ أقداحاً ، ويرتاح بهـا كأنه عاقر راحاً ثم يشرع في الكتابة . . . »

فالذي يهمّني من هذا الكلام إنما هو لفظ : بيت القهوة ، وقد جعلته عنواناً لهذا المقال وإن كان جزءاً منه . لقد دلّنا هذا البيت على أنّهم في القرن الحادي عشر كانوا في دمشق يجتمعون لشرب القهوة في مكان سمّوه : « بيت القهوة » ، وكانت تلك البيوت تشتمل على الماء الجاري وعلى الساقي المليح ، فليس بقليل أن نعرف هذا النوع من الحياة الاجتماعية ؛ ليس بقليل أن نعرف أنهم كانوا يشربون القهوة في أماكن عامّة فيها بعض مشاهد لطيفة من الطبيعة كالماء الجاري ، ولا بد لساقي القهوة من أن يكون حسن الوجه ، على أن أشعار العرب قد كثرت فيها الاشارة إلى حسن وجوه الذين كانوا يسقون الخمر ، فالغالب على القوم في القرن الحادي عشر أنهم كانوا مولعين بشرب القهوة ، أي قهوة البنّ ، وأنّهم كانوا مختلفـــين في تحريمها وتحليلها ، وقد أدّى هذا الاختلاف إلى شقاقهم في بعض الأوقات ، ونرى هذا الاختلاف في ترجمة الشيخ أبي الفتح المالكي ، فقد كان شيخ الإسلام الشيخ يونس العيتاوي الشافعي يرى تحريم القهوة ، وكان الشيخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أبو الفتح يكاد يرى وجوبها ، فحصل بينها شقاق طال أمده على نحو ما قال البوريني ، وتناظرا في هذا الباب بمحضرٍ من قاضي الشام علي أفندي الشهير بقتلي ، ونظم الشيخ أبو الفتح مقطّعات وموشّحات وقصائد في محاسن القهوة وبيان منافعها حسبنا الإشارة إليها في هذا المقام .

من هذا كله نرى أن الناس كانت لهم مجتمعات عامّة لشرب القهوة سموها : بيوت القهوة ؛ أفلا نرى الناس في عصرنا هذا يجتمعون في أوقات فراغهم في مجتمعات عامّة لشرب القهوة والشاي وغيرها ؟ إلاّ أن الذي اختلف أمره إنما هو التسمية ، فقد كانوا يسمّون الأماكن التي يشربون فيها القهوة : بيوت القهوة ، ونحن نسميها في عصرنا : المقاهي .

وكما دلّنا لفظ : بيت القهوة على مجتمعات القوم في القرن الحادي عشر ، فقد دلّنا لفظ : « فروة سمّور » على نوعٍ من ملابسهم . إنّا نجد في ترجمة الوزير أحمد باشا الحافظ ، حاكم دمشق على أيّام السلطان أحمد ما يلي : « وفي يوم الأربعاء ، ثامن عشر شهر رمضان من شهور سنة عشرين بعد الألف دخل الحافظ الوزير المذكور آنفاً إلى دمشق بموكب عظيم وركب في خدمته العسكر الشامي ولبس أطلس فروة سمّور عظيمة القيمة ... »

فكما نجهل مجتمعات القوم في القديم فكذلك نجهل ملابسهم ، فهذه الفروة ، فروة سمّور ، لم يبطل لبسها في دمشق إلاّ من أربعين أو خمسين سنة ، فقد كانوا يلبسونها في أيّام الشتاء ، وكان الشتاء في تلك السنين شديداً والبرد قارساً ، فكانت فروة السمّور تقيهم شدّة البرد ، إلاّ أن الذين كانوا يلبسونها إنما هم من طبقة الأغنياء لأن أثمانها غالية فلم يتيسر لطبقة الفقراء اقتناء هذا الجنس من الفرو ؛ وكان القوم يتباهون بلبسها ويتفاخرون ؛ ولم يلبسها إلاّ الكهول والشيوخ ، أمّا اليوم فقد بطل لبسها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأظن أن النشء الذين يعيشون في هذا العصر لا يعرفون شيئاً عن فروة السمّور ، فاذا مرّوا في بعض الكتب بهذا اللفظ فلا يحيط علمهم بمعناه ، والسمّور في اللغة كتنور دابّة يتخذ من جلدها فِراء مثمنة (١) .

وإذا كان من الألفاظ ما يدلّ على نمطٍ من أنماط الحياة الاجتماعية أو على نوع من أنواع الملابس فان منها ما يدلّ على طرزٍ من العمران .

ماذا نجد في ترجمة الشيخ أبي بكر الجوهري ؟ إنّا نجد « أن المولى بدر الدين بن حسام الدين التبريزي الجوهري كان من أفاضل الناس ، وكانت له معرفة بصناعة القهاري اللطيفة ، حتى ان القهاري الثلاث التي هي فوق محراب الجامع الأموي من صناعته ... »

الذي نعرفه في عمراننا القديم في دمشق أن القُمْرية إنما هي شبه شبّاك صغير في أعلى الحائط ، قريب من السقف ، مركّب من زجاج ملوّن بألوان مختلفة ، وفي الجامع الأموي بعض هذه القهاري ، إلاّ أنه في العمران الحديث بطل هذا الشكل من القهاري ، وحدثت الشبابيك الكبيرة ، ولكن لماذا سميت : قمرية ؟ هذا ما لا نعرفه ، فالقمرية في اللغة ضرب من الحمام ، فهل كان هذا الحمام يلجأ إلى هذا الشباك الصغير أو يعشّش فيه حتى ألقى على هذا الشبّاك اسمه ، فسمّي الشبّاك : قمرية ، الله أعلم بذلك .

أما وقد اهتدينا إلى لفظ يدلّنا على شكل من أشكال عمراننا القديم فلا بأس بالاشارة إلى لفظ قد يستعمل اليوم في داخل البيوت ، وهو لفظ : التعزيل .

---

(١) في معجم الألفاظ الزراعية أن الاسم العلمي للسمور هو Mustela Zibellina ، وأن فراءه مشهورة ، وانه يصاد في جبال آسيا الباردة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وردت في ترجمة الشيخ أحمد بن سليمان الدمشقي الصوفي القادري هذه العبارة : « واستمرّ في محلّة الشلاّحة بدمشق ، وانتقل إلى القليجيّة بدمشق ، وعزّل التراب الذي كان بها من بقايا الخراب . . . » . لا تزال هذه المادّة : عزّل مستعملة في لغة العامّة في دمشق ، ولم يشر إليها صاحب القاموس المحيط بالمعنى الذي نستعمله اليوم ، فالتعزيل في لغة العامّة ويسمونه أيضاً : التعسيف ، يُقصد به رفع أثاث البيت بأجمعه من مكانه ونفض التراب عن الأرض والحيطان والشبابيك والسقف ، ونفضه عن الأثاث ، ثم إعادة الأثاث إلى مواضعه ، وأكثر ما يكون التعزيل في أول الشتاء وأوّل الصيف ، وفي الانتقال من دارٍ إلى دارٍ ، هذا ما نعرفه في دمشق عن التعزيل ، وما أظن أن لفظاً آخر يقوم مقامه ، فان التنظيف في مثل هذا المقام أضعف من التعزيل ، لأن التعزيل أعمّ ، وقد استعملت هذه المادة في باب المجاز في لغة العامّة والخاصّة وأريد بها إخراج كل فاسدٍ من حكومة أو مؤسسة أو غيرها .

★ ★ ★

هذا يسير من ألفاظ مررتُ بها في مطالعتي تراجم الأعيان للبوريني . وقد بقيت ألفاظ كثيرة لم أذكرها في هذا المقال لضيق المجال ، وإلى جنب هذه الألفاظ تراكيب قد بطل استعمالها في عصرنا مثل قولهم في القرن الحادي عشر : التمسّك الشرعي ونحن نقول في هذا العصر : الصك الشرعي ، أو قولهم : شاعر الوقت ، ونحن نقول اليوم : شاعر العصر ، على أنّا نجد بعض تراكيب طريفة لم نر من استعملها في أيّامنا مثل قولهم : يكتبها من رأس القلم ، أي من غير تسويد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نستنبط من كل ما تقدَّم أن الحياة لا تثبت على وجهٍ من الوجوه ، فقد يكون العمران في عصرٍ من العصور على شكل ثم يكون في عصرٍ آخر على شكل ؛ وقد يكون اللباس في زمنٍ من الأزمان على نمط ثم يكون في زمنٍ آخر على نمط ، واللغة التي تصوّر لنا مذاهب الحياة لا مندوحة لها عن الانتقال من طورٍ إلى طورٍ على تعاقب السنين ، فهي تتغيَّر ما تغيَّرت الحياة ، ولن نجد لهذه السنَّة تبديلاً .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net